د.مصطفى الفقى
الكاتب والمفكر السياسى، مساعد أول وزير الخارجية الأسبق

مظاهر التغيير فى العالم المعاصر..
الكوارث الطبيعية والخلافات السياسية

مقدمة :

عرفت منطقة الشرق الأوسط - والجزء العربى منها - خلافات بينية تطفو على السطح من حين لآخر ثم تنقشع السحب فجأة وتتوالى الابتسامات والتحيات وكأن شيئًا لم يكن، وذلك يعنى أن فى أعماق دول المنطقة روابط أقوى من كل الخلافات وصِلات أشد من كل الأزمات.

أقول ذلك وأنا أرقب الأيام الحزينة بدءًا من السادس من فبراير/ شباط ٢٠٢٣ عندما ضرب زلزال مروع شرق تركيا وجنوبها، وشمال سوريا وغربها، وغيرها من البقاع المنضوية تحت لواء الدولتين، وبلغت الخسائر أرقامًا فادحة فكان الضحايا بالآلاف والجرحى بعشرات الألوف، وقد تلاشت الخلافات أمام الفاجعة، وهَرع العرب وغير العرب لنجدة الأشقاء فى سوريا وتركيا مؤمنين بأنه لا بد أن تختفى الخلافات والصراعات أمام الشدائد والنوائب، بل خرج بعض الرؤساء عن المألوف وأجروا اتصالات هاتفية مع رئيسىّ الدولتين المنكوبتين متجاوزين كل الخلافات والملابسات والظروف، ومن أمثلة ذلك العزاء الهاتفى الذى بادر به الرئيس المصرى عبد الفتاح السيسى لكل من الرئيس السورى بشار الأسد والرئيس التركى رجب طيب أردوغان، حيث ارتفع الجميع فوق كل الاختلافات أمام الحدث الجلل وغضب الطبيعة المروع، وذلك فى ظنى يُبرهن على عدد من الملاحظات التى تتصل بالخلافات بين الدول العربية والتى تبدو فى سماء المنطقة، بينما واقع الأمر يُشير إلى غير ذلك تمامًا؛ فالمشاعر القومية دفينة والتعاطف الدينى المشترك واضح، خصوصًا أن المأساة وقعت فى ظل جو شديد البرودة مع أمطار تنهمر وعشرات الألوف من السكان قد هجروا منازلهم ولاذوا بالمساحات الخالية والأراضى الفضاء، بل إن أحد الأديرة فى حلب الشهباء استقبل أعدادًا كبيرة ممن لجأوا إليه دون النظر إلى دياناتهم أو جنسياتهم أو أعراقهم، فالكل أمام شبح الموت سواء، بل قدَّم الذين يعيشون فى ذلك الدير الوجبات لكل الحاضرين مع رعاية خاصة بالأطفال خصوصًا أن هناك مناظر تُدمى القلوب، فلقد رأيت أحد رجال الإنقاذ يحمل طفلة لم تتجاوز الثانية من عمرها ويمسح على وجهها بيده ليتأكد من أنها ما زالت على قيد الحياة، فإذا بها تنظر إليه فى سعادة وكأنها تُدرك أنه قد أنقذ حياتها، ثم طفلة مولودة فى أثناء انهيار المنزل فوق رأسها هى وأهلها، فإذا بأحد رجال الإنقاذ يُبادر بقطع الحبل السُّرِّى عن الأم التى راحت ضحية ذلك الزلزال، ويتم إنقاذ الطفلة الرضيعة التى فقدت إخوتها وأبويها ولم يعُد لها فى الحياة إلا رعاية الله التى وسعت كل شىء، إنها

لحظات رهيبة يشتد فيها الخيط الرفيع بين الحياة والموت، وإذا كان هذا الزلزال الأخير قد وقع فى منطقة يرى الخبراء أنها ضمن حزام الزلازل فى المنطقة إلا أن ذلك لا ينفى وجود عنصر المفاجأة الصادمة، خصوصًا أن عددًا كبيرًا من سكان المناطق السورية وبعض المناطق التركية هم من النازحين نتيجة الصدام بين أصحاب الموالاة وعناصر المعارضة على أرض الشام بدءًا من دمشق الفيحاء حتى حلب الشهباء، ولقد شاهدنا جميعًا همَّة كثير من الدول وهى تندفع لأسباب إنسانية بحتة لتقديم العَون بعيدًا عن الأهداف السياسية أو المصالح الآنية..

دعنا نتأمل النقاط التالية:

أولًا: إن الحياة فى مجملها هى محنة، ورغم اللحظات السعيدة فيها فإنها غير مضمونة، وقد ينتقل الأفراد أو الأسر من أكثر لحظات العمر سعادة إلى أتعس لحظات الحياة بؤسًا، وقديمًا صَدَق مُعاوية بن أبى سُفيان حين قال: (ما من دار مُلئت حبرة، إلا وملئت عبرة)، أو كما كان يقول لى أبى رحمه الله: (إن زهزهت لك الدنيا، فابدأ بالخوف منها)، ولكن المؤلم فى وضع أشقائنا فى سوريا وتركيا أنهم لم يكونوا بحق فى فترات سعيدة أو أيام آمنة؛ إذ إن الزلزال قد ضرب مناطق الصراع وكأنما هى رسالة إلهية ليُنصت لها الجميع فيلقوا السلاح ويكفُّوا عن الاحتراب ويمتنعوا عن الاقتتال، ولذلك فأنا أرى أن التعريف الدقيق للحياة هو أنها حِلف الأحياء، فإذا كان مجلس الأمن مثلًا هو حِلف المنتصرين فى الحرب العالمية الثانية فإن الحياة هى حِلف من يعيشونها فى مواجهة من يرحلون عنها.

ثانيًا: إن الله قد يجمع الثراء والصحة ويعطيهما لشخص بذاته ثم يُعطى الآخرين البؤس والشقاء والفقر والمرض، فيتساءل المخلوق فى حيرة أين العدل فى ذلك؟! وللعدل هنا مفهوم نسبى لا يُدركه الأحياء ولكن يستأثر به من نسميهم أصحاب الخطوة أى أولئك الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، وهم يعرفون الصفح والمغفرة ويُدركون معنى العفو والتسامح، ويؤلمنى أن هذا الشعور القومى الذى استقبلناه جميعًا بالرضا والقبول ليس هو ذاته الذى يُطبَّق فى مناطق أخرى من عالمنا العربى وبالتأكيد هى أولى بالرعاية والاهتمام من أشياء كثيرة أخرى.

ثالثًا: إن مثل هذه الكوارث تُعلِّمنا أن الحياة ليست مضمونة، فالناموس العام الذى يحكم الأعمار لا يُدرِك سرَّه إلا الله؛ ولذلك فإن الأرواح حبيسة الأجساد، وأتذكر الآن وأنا طفل صغير لم أتجاوز الثانية عشرة أن زارنا قطب صوفى معروف، وانتدبنى يومها بعض الكبار لكى ألقى كلمة ترحيب بالضيف الزائر فقلت له: (إننا نعتقد أن الإيمان بعقيدة معينة يرفع صاحبها درجات ويجعله فى مأمن من اليأس وفى منجًى من الخوف)، وأنا الآن اندهش كيف استخدمت مثل هذه العبارات فى تلك السن الباكرة، لذلك فعندما وقع زلزال عام ١٩٩٢ الذى ضَرب مصر وأودى بحياة الكثيرين كنت أشعر بأن الإيمان هو الذى يمكن أن يَعصِم أصحابه من الألم واليأس؛ لذلك آلمنى كثيرًا أن بعض هيئات الإغاثة كانت تختار ترتيب الأولويات بمنطق سياسى وليس بدافع إنسانى، بينما الذين يُدركون فلسفة الوجود وطبيعة الحياة يعلمون جيدًا أن البقاء والفناء جزء من حكمة إلهية لا ندركها نحن (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا).

رابعًا: إن الخلافات العربية – العربية فى مُجملها سطحية ولا تستند إلى أسباب قوية؛ لذلك فإنها لا تصمُد أمام تيار العاطفة الجارف التى تجمع العرب خصوصًا فى اللحظات الصعبة، ونحن ندرك أن الدماء التى تجرى فى عروقنا هى دماء مشتركة، فالإنسانية كلها تَمخُر عُباب الحياة فى قارب واحد، تجمع بين كل من عليه وحدة القدر والمصير، ولقد رأيت فزع الناس لأخبار الزلزال البعيد عنهم ولكنهم يُدركون أن الأمر يعنى إن أخوة وأخوات وآباء وأمهات يصافحون الموت فى لحظات عصيبة وينتظرون الغوث من الأحياء فى كل مكان.

خامسًا: إن الكوارث لا تُفرِّق بين الناس بسبب توجهاتهم السياسية أو انتماءاتهم الفكرية؛ لذلك فإن الأمر أيضًا يجعل الإغاثة مسألة عامة لا تنصرف لجماعة دون أخرى، ولا تُميِّز قومًا عن قوم، فالكل أمام الموت سواء ومَن لا يتعظ من الموت فلا واعظ له.

إننى أريد أن أقول إنه لا بد من وجود آليات للإغاثة قائمة ودائمة، وأن يتمكن العرب فى دولهم بل وأبناء الإقليم كله بمن فيهم من تُرك وعُجم ويهود أن وحدة حياتنا مشتركة، وأننا أمام المصائب سواء، وأن علينا أن نترقب القادم قبل وقوعه، وأن نرصُد الخطر قبل أن يأتينا، خصوصًا أن غضب الطبيعة أصبح واردًا بمعدلات أكبر مما كان عليه، فالتغير المُناخى يَصحَبه تغيير فى الظواهر الأخرى من زلازل وسيول وفيضانات، كما أن عنصر الزمن يلعب دورًا فعالًا فى تحديد قيمة كل حدث وارتباطه بفترة زمنية معينة، فالتغيير ليس قضية مطلقة ولكنه مسألة نسبية تربط بالمقارنة بين ما كان قائمًا من قبل وبين ما طرأ على الحياة من بعد، ويتحكم فى هذا الأمر عدد من العوامل التى تختلف باختلاف الزمان والمكان، لذلك فإن معدل التطور الإنسانى لا يمضى على وتيرة واحدة بل وفقًا لعهود معينة، وعصور بذاتها تركت بصمات أكثر من غيرها على وجه الإنسانية وبدت لكل من يتابعها أنها حَفريات غائرة على وجه الزمن، فاختراع العجلة واختراع الطباعة كانا مرحلة جديدة فى حياة البشر، كما أن اختراع الكهرباء قد نقل البشرية من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وقِس على ذلك عشرات الاكتشافات والاختراعات التى غيَّرت معالم البشرية وأحدثت تحولًا جِذريًا للحياة على كوكب الأرض، ولو تأملنا القرون العشرين الماضية لوجدنا أن لكل عصر سماته ولكل أوان آثاره، وأنا مقتنع بالمقولة التى ترى: (إن معدل التطور على الكوكب خلال الخمسين عامًا الماضية يكاد يعادل ما تم فى خمسمائة عام سابقة عليها، وأن ما تم فى تلك الخمسمائة عام يعادل ما تم فى الخمسة آلاف التى سبقتها أو يزيد)، فالحياة فى تطور دائم يكاد يمضى بمتوالية هندسية وليس بمتوالية عددية؛ وذلك لأن زيادة مساحة المعلوم تعنى تلقائيًا زيادة مساحة المجهول أيضًا، وكلما تحقق للبشرية كشف علمى أو اختراع تقنى فإن ذلك يحمل فى طياته تلقائيًا مساحة جديدة من الغموض الذى يُحرِّض على التفكير ويدعو إلى المزيد من البحث فى المستقبل، وليس صحيحًا على الإطلاق أن البشرية كلما قطعت أشواطًا إلى الأمام فإنها تزيد مساحة المعرفة وتؤدى إلى توسيع دائرة الضوء على طريق المستقبل ولكن الأصوب هو أن الاكتشافات والاختراعات يمثلان مبررًا للتساؤل ودافعًا للتحريض على أفكار جديدة فقد كان الجهل بمنزلة وَهْم يعيش فيه البشر متصورين فى كل مناسبة أنهم حققوا ماحَلموا به!، وإذا أردنا التصدى لمظاهر التغيير فى التجمع البشرى المعاصر فإننا نرصدها فى عدد من المحاور على النحو التالى:

المحور الأول: محور التكنولوجيا والتقدم العلمى والأبحاث الطبية، وهى أمور أحدثت انقلابًا كبيرًا فى حياة البشر، ونقلتنا إلى عصر الذكاء الاصطناعى وعصر الروبوت الذى ينافس الإنسان فيما يفعل، ويجعله مُقبلًا على عصر جديد وفتوحات حقيقية لتُصبح الحياة أكثر يُسرًا ولكنها أيضًا أكثر تعقيدًا، وتؤدى إلى شعور بأن البشرية تقفز خطوات واسعة لم تكن فى الحسبان، بل إن بعض الاختراعات العلمية الحديثة لا تأخذ نصيبها فى التطبيق التجارى لأن تطورًا آخر يُلاحقها وقد يسبقها على نحو يجعل السباق الحقيقى بين الإنسان والزمن وليس بين الإنسان والإنسان فقط؛ فالمنافسة محكومة بعامل الزمن على نحو غير مسبوق.

المحور الثانى: محور الحروب والنزاعات المسلحة، وهو يترك آثارًا غائرة على وجه الزمن وبصمات عميقة فى حياة الشعوب، وليس صحيحًا على الإطلاق أن الحرب شر لا بد منه، فلقد عرفت البشرية قرونًا من الهدوء والسكينة، وفى ظل تنافس متوقع يأتى فى إطار الصراع البشرى المعتاد، وإذا كان العالم قد عرف فى القرن الماضى حربين عالميتين فإن ذلك لا يُبرر استمرار المعاناة التى تلحق بالأبرياء وبقطاعات معينة من البشر والتى يكون وقودها الحقيقى ملايين المدنيين ومنهم نساء وأطفال وكبار العمر، ولقد جاء الوقت لكى ندرك أن الحرب مأساة والذين يتشدقون قائلين بأن الحروب تمثل مراحل من التطور فى حياة الإنسان هم واهمون؛ فقد تكون الأفكار الكبرى والأطروحات الجديدة أكثر تأثيرًا من حرب كبرى أو نزاع مسلح مهما تكن مبرراته والدوافع إليه.

المحور الثالث: محور اجتياح الأوبئة، ونعنى به تلك الفيروسات المنتشرة والتى صنعت قدرًا كبيرًا من الشكوك فى التفسير التآمرى بأن هناك قوى معينة تسعى لتقليل عدد

سكان البشرية بعد صدمة الوصول إلى المليارات الثمانية فى عدد سكان الكوكب مؤخرًا، ورغم أننى لا أتحمس للتفسير التآمرى للتاريخ فإننى أعترف بوجود المؤامرة فى التاريخ البشرى فى كل الأحوال، ويشفع لى فى ذلك: المصرع الغامض للرئيس الأمريكى الراحل جون كنيدى عام ١٩٦٣، والنهاية المأساوية لأميرة القلوب ديانا عام ١٩٩٧، وغيرها من الأمور الغامضة والأحداث المجهولة التفسير والتى لا نستطيع إلا أن نقرر أنها جاءت بترتيب بشرى مُسبق يفسر إلى حد كبير الملابسات التى أحاطت بوباء الكورونا مثلًا التى امتد تأثيرها لسنوات حتى الآن.

المحور الرابع: محور تغيير المُناخ، وذلك يهدد البشرية فى صميم وجودها ويعطى إحساسًا بأن القادم قد لا يكون هو الأفضل وأن ما مضى قد لا يعود؛ إذ إن تآكل اليابسة وانهيار شواطئ البحار والمحيطات وارتفاع درجة حرارة الكون وغير ذلك من الظواهر الوافدة على حياتنا تعطى فى مجملها إشارات تُنذر بالمشكلات المحتملة والأزمات القادمة، إن العالم لن يكون فى أعوامه القادمة مثلما كان فى أعوامه الماضية، فضلًا عن مشكلات أخرى تتعلق بنُدرة الموارد فى مواجهة التزايد الضخم للاحتياجات، بالإضافة إلى تطور أسباب الرفاهية وظهور اكتشافات واختراعات تدفع إلى مزيد من التطلعات الاستهلاكية ولا تؤدى بالضرورة إلى تزايد فى الإنتاج، والكل يلاحظ أن مظاهر الحياة الحديثة قد جاءت معها بإجراءات واسعة فى المأكل والملبس والمسكن بصورة لم تعرفها البشرية من قبل وهو ما يفسر ظهور الاختناقات فى أنواع الوقود المختلفة والاندفاع المحموم نحو مظاهر الاستهلاك العصرية.

المحور الخامس: محور الندرة فى الطاقة والمياه، وهنا تقف البشرية أمام أكبر التحديات التى تواجهها فى المستقبل القريب عندما تَشرع المجتمعات فى تنظيم موارد المستقبل، فنجد أن أزمة الطاقة تسيطر على المُناخ البشرى العام، خصوصًا إذا اقترن الأمر بصراعات مسلحة أو حروب موضعية مثلما هو الأمر الحادث فى أوروبا حاليًا بين روسيا وأوكرانيا، وخطورة الأمر فى هذه الحالة أن الصدام يجرى فى قلب المعمورة وليس على أطرافها بما يُنذر بخطر داهم، ويكفى أننا نذكر هنا أنه ولأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يجرى التلويح باستخدام السلاح النووى، وهو أمر لم يكن واردًا فى أجندة مستقبل العلاقات الدولية المعاصرة، أما موضوع المياه فحدِّث ولا حرج؛ فالشرق الأوسط –على سبيل المثال– يتعرض لأزمة قاسية بسبب محاولات التحكم فى منابع الأنهار سواء فى تركيا الفرات أو إثيوبيا النيل، وغيرهما من التهديدات التى تضرب السلم والأمن الدوليين وتؤدى إلى تفاقم الصراعات واشتعال النزاعات بين دول مجرى النهر الواحد.

هذه قراءة لا أدَّعى أنها تُقدِّم جديدًا، ولكننى أدَّعى أنها تجمع شَتاتًا متناثرًا من شظايا الأحداث الجسام والمخاطر الناجمة عن التطورات التى حملها القرن الحادى والعشرون منذ بداياته بواقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية عندما اقتحمت طائرات معادية مبنى بُرجَىْ مركز التجارة العالمى بنيويورك، وما نَجَم عن ذلك من تأويلات وصراعات أدَّت إلى توحش ظاهرة الإرهاب وما يلحق بها على نحو نعانيه نحن العرب أكثر من غيرنا، فنحن الضحية الأولى، وفى الوقت نفسه نحن المتهم الأول أيضًا!، وتلك كلها أمور تَلُوح بالأفق وتُعطى إحساسًا بأن ما هو قادم قد لا يكون متوقعًا حتى لدى غُلاة المتشائمين، وإذا كنا نعيب على أنفسنا عدم الاستعداد للمفاجآت السياسية، فإننا نطلب الاستعداد للتغيرات المناخية، فليس غضب الشعوب وحده هو ما نعانيه ولكنه غضب الطبيعة أيضًا، إننا نتطلع إلى أمة تعيش روح العصر بأدواته وأفكاره وتطلعاته، فلنضع الخلافات جانبًا ولنفكر فى أمن الإنسان وسلامته بل وبقائه وصحته.